مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

تأثير أسلوب الإنتاج الحربي على نوع الهدايا السلطانية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

د. سماعيلي رشيد
دكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – وجدة
جامعة محمد الأول – المملكة المغربية

مُلَخّص

يهدف هذا المقال إلى دراسة تأثير «أسلوب الإنتاج الحربي» في تحديد نوعية الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، انطلاقًا من تحليل مضامين الحوليات الوسيطية التي تمحورت في الغالب حول التاريخ السياسي والدبلوماسي وتاريخ علية القوم، وتجاهلت ما عداهم من فئات المجتمع. يستند البحث إلى مقاربة تحليلية نقدية تستنطق النصوص التاريخية لاستخراج المسكوت عنه، وتكشف العلاقة البنيوية بين التوجه الاقتصادي الحربي للدولة الوسيطية وطبيعة الهدايا التي كانت تُقدَّم بين السلاطين والملوك. يبيّن البحث أن غالبية الهدايا السلطانية كانت أدوات ومعدات حربية كالسيوف، الدروع، السروج، الخيول، الأقواس، العبيد، والجلود العسكرية، ما يعكس اندماج النظام الاقتصادي في خدمة المجهود الحربي وتعبئة الموارد البشرية والمادية للدولة. كما يوضح أن هذه الهدايا لم تكن رمزية بقدر ما كانت تُوظَّف لتعزيز القدرات العسكرية، وتأمين الحلفاء، وشراء الولاءات، وفرض الهيبة. ويبرز البحث أن طبيعة الجغرافيا الجبلية والسهلية كانت تؤثر في نوع وقيمة الهدايا، وأن وفرة الغنائم والجبايات في «طور تحصيل الثمرات» سمحت بظهور نمط ثانٍ من الهدايا ذات طابع ترفيهي وترفيهي، شمل الحيوانات النادرة والبزاة والأسود والزرافات وغيرها، والتي عكست تحوّل الدولة من طور الفتح والجهاد إلى طور البذخ والدعة. يخلص المقال إلى أن الهدايا السلطانية كانت انعكاسًا مباشرًا للبنية الاقتصادية والعسكرية للدولة الوسيطية، وأداةً لإظهار القوة وبناء الشرعية السياسية، إضافة إلى دورها في التبادل الثقافي بين المغرب والأندلس ومناطق الجوار.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ مارس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٠ أبريل ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

الإنتاج الحربي؛ الهدايا السلطانية؛ المغرب والأندلس؛ الحوليات الوسيطية؛ التاريخ الوسيط

معرّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2025.453507

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سماعيلي رشيد. "تأثير أسلوب الإنتاج الحربي على نوع الهدايا السلطانية في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ٦٠ – ٦٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: smmailirachh@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

إن الباحث في تاريخ المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط قد "ينتبه" إلى أن الدولة الوسيطية تُمثل في جوهرها تاريخ الغالب أو المغلوب. وأن الباحث يعلم "أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره".[١] وأن العامل السياسي هو الذي يطغى في كتابات مؤرخي العصر الوسيط، وأن "أرزاق المجتمع مرتبطة باستعمال رماحهم". وانسجامًا وتطور الكتابة التاريخية يعتمد الباحث على التاريخ الإشكالي والتركيبي من خلال تحليل العلاقة بين "أسلوب الإنتاج الحربي"،* ونوع الهدايا السلطانية فيما بينهم، حيث كان توجيه الاقتصاد الوسيطي لخدمة الحرب بشكل عام. لكن سنقتصر في هذا المقال التفاعل مع الإشكالية الآتية: كيف انعكس "أسلوب الإنتاج الحربي" على تحديد نوع الهدايا السلطانية؟ كيف يمكن فهم هدية سلطانية تتكون من سبعمائة فرس، وألف درعة لمطية، ومائة سيف دون استحضار تأثير "أسلوب الإنتاج الحربي" في ذلك؟ هل هناك علاقة بين هدايا سلطانية تهدف للترفيه والتسلية "بطور" من "أطوار" الدولة الوسيطية؟

أولاً: طبائع الحوليات الوسيطية

يدرك "القارئ" للحوليات الوسيطية انطلاقا من عناوينها وديباجتها دواعي تأليفها التي تتمحور حول السلطان من خلال ذكر مناقبه، إنجازاته، انتصاراته، ديبلوماسيته... يرسم المؤرخ الوسيطي في ذهنه تصورًا معينًا لنوعية كتاباته، فهو "ينتقي" الأخبار ضمن حولياته، لذلك يقف عند بعض السنوات، في حين يسكت عن أخرى.

من بين انتقاءاته للأحداث تركيزه على الهدايا السلطانية، فإذا أخذنا كتاب "البيان المغرب" الجزء الأول يقول: وفي سنة ٣٥٩هـ وصلت هدية حفيلة من جوهر إلى مُعد بن إسماعيل المعز لدين الله العبيدي[٢]، وفي سنة ٣٦٥هـ بعث أبو الفتوح أمير إفريقية إلى العزيز بالله هدية[٣]، وفي رجب من سنة ٣٧٤هـ قدم المنصور إلى رقادة، وأتاه العمال بالهدايا والأموال[٤]. وفي سنة ٣٨٢هـ جاءته الهدايا من البلدان ومن كل جهة ومكان[٥]. وفي سنة ٣٨٤هـ كان وصول الهدية من مصر مع جعفر بن حبيب ومعه فيل عظيم[٦]، وفي سنة ٣٨٦هـ كان أبو مناد قد هيأ هدية ليبعثها للعزيز[٧]، وفي سنة ٣٨٨هـ وصلت إلى نصير الدولة هدية من مصر تشتمل على الجوهر والأعلاق النفيسة[٨]، ويستمر[٩] في تدوينه "للتاريخ من أعلى" معتمدا على منهج يمكن وصفه بمنهج "الانتقاء"، لكن تختفي في المقابل ضمن حولياته أحداث "التاريخ من أسفل" هدايا الفقراء، والحرفين، والفلاحين، والرعاة، والهدايا المقدمة للأطفال وغيرهم من شرائح المهمشين. مما يتطلب من الباحث طرق أبواب "المصادر الغميسة" منها ماورد في كتب المناقب في ترجمة أبي يعزى الذي جاءه رجل بحمارة فأهداها أبو يعزى لأحد زواره[١٠].

إذا كان صاحب "البيان المغرب" قد انتقى في حولياته أخبار الهدايا السلطانية، فصاحب "المسند الصحيح" عَنْون الباب الثلاثين من أبواب كتابه بعنوان: "في مقابلة الهدايا والتحف"[١١]، كما عنون الباب الواحد والخمسين من كتابه بعنوان: "في هداياه للملوك وفيه فصلان"[١٢].

من جهة أخرى يتفنن المؤرخ الوسيطي في توظيف مرادفات الهدية في حولياته حتى يتفادى الإساءة للحاكم والسلطة يذكرها بصيغة الجائزة[١٣]، والصندل[١٤]، والطرف[١٥]، والتحف[١٦]، الصدقة[١٧]، والقطيعة[١٨]، والألطاف[١٩]، لكن قد تكون في الأصل "رسوم جمركية"، مثل إعفاء سكان أيشتوم من الإتاوات لكن يقدمون كل سنة هدايا[٢٠]، حتى تخول لهم السفر إلى فاس في أمان[٢١]. كما تأتي ضمن الحوليات ضرائب مغلفة باسم الهدية، حيث كان سكان جبل مسطاسة لا يقدمون للملك ضريبة، بل هدايا بسيطة والسبب أنهم يتحصنون بالجبل[٢٢]. أيضا كان ملوك تلمسان يقدمون هدايا للأعراب لتهدئتهم[٢٣]. كما أن بعض القبائل التي كانت تحت رحمة العرب تقدم هدايا مهمة لهم اتقاء لشرهم، الشيء الذي كان يغضب أمراء مراكش[٢٤]. فهل هي هدية أم خَفَارة من أجل الأمان؟

قد تأتي الهدية تارة للتجنب دخول السجن كما حدث مع أحد النبلاء المقيم بقسنطينة حين سكّ دنانير، فلما سمعه الملك استدعاه، فأرسل النبيل له دنانير وهدية عظيمة، فسكت الملك[٢٥]، وسكت المؤرخ كذلك وتستر عن ذكرها باسم الرشوة. أيضا كان أحد القضاة يأخذ

الرشوة وقدموا به شكاية للسلطان المريني، إلا أن مستشاري السلطان نبهوه إذا لم يقبض القاضي الرشوة في الأحكام، "فمن أين يأتيك بما يأتي به إليك من الهدايا"[٢٦]. فهي بالنسبة للقاضي رشوة، لكن هدية بالنسبة للسلطان حسب المؤرخ. وقد تكون الهدية في أصلها غنيمة، يشير ابن عذاري إلى أن عقبة بن قدامة توجه إلى الشام سنة ١١٤هـ فأخذ من المغرب معه الهدايا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك[٢٧]. وقد يوظفها المؤرخ بصيغة هدية، لكن هي بدافع الخوف والحفاظ على السلامة البدنية، حيث لما استولى عقبة بن نافع على المغرب، ووصل إلى سبتة، فخرج إليه يليان بهدايا وتحف فأمَّنه عقبة[٢٨]. ولما تقدم موسى بن نصير إلى غزو سبتة صانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا[٢٩]. فهل صانعه أم اشترط عليه نوع وحجم الهدية؟

ينطلق المؤرخ الوسيطي في تأليفه من المركز ومن الإيديولوجية الرسمية[٣٠]، لذلك يرى من جهة، أن الأخبار التي تستحق تدوينها كل ما ارتبط بتاريخ علية القوم، كالتاريخ الديبلوماسي الهدايا السلطانية، بل في كثير من الأحيان يكتب كتابه وبعد ما ينهيه يقدمه هدية للسلطان. فقد أهدى ابن خلدون نسخة من مقدمته، وتعرف بالنسخة الفارسية، حيث أهداها للسلطان المريني أبي فارس[٣١]، ومن جهة أخرى يلجأ المؤرخ الوسيطي إلى أسلوب "ذكي" في اختيار ألفاظه فهو يتغاضى عن ذكر الرشوة، في المقابل يستعيض عنها بالهدية لذلك يتطلب من القارئ والباحث استنطاق النص التاريخي ومساءلته لاستخراج المسكوت عنه في الكتابة التاريخية.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية غالبًا ما تسكت عن ذكر مكونات الهدية السلطانية، بل تقتصر فقط على ذكرها بصيغة هدايا حسنة[٣٢]، هدايا ثمينة[٣٣]، وصلت هدية للسلطان[٣٤]، كما وصلت يوسف المريني من تونس هدايا وتحف[٣٥]، وهنّأ طاغية الإفرنج السلطان أبا الحسن الأكحل بهدية نفيسة[٣٦]، وأخرج له هدية عظيمة[٣٧]، وترد بصيغة تحف عظيمة[٣٨]، وهدية جليلة[٣٩]، ووصلته الهدايا[٤٠]، والأمتعة[٤١]، وبعث إليه بالبيعة والهدية[٤٢]، واستعد لذلك بالهدايا الخطرة[٤٣]، وصيغة بتعبير و"كان في هذه الهدية أشياء أخرى لم أسجل عددها"[٤٤]. مما يتطلب من الباحث استنطاق هذه النصوص التاريخية، ومحاولة طرح سؤال: هل هذه الهدايا "الصامتة" هي الأخرى انعكاس "لأسلوب الإنتاج الحربي"؟

ثانيًا: انعكاس "أسلوب الإنتاج الحربي" في تحديد نوع الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

١/٢-إيلاء أهمية كبرى للهدايا التي تخدم "أسلوب الإنتاج الحربي"

قد لا يكون مبالغًا ابن خلدون عندما أشار إلى أن المجتمع الوسيطي يتمثل "رزقهم في ظلال رماحهم"[٤٥]، إضافة إلى مجمل المصادر التاريخية التي تعج بأخبار الحروب التي شكلت بنية الدولة الوسيطية، فالمرينيون كانوا "لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة"[٤٦]، التي توفر غنائم تملأ بها خزينتها سواء قبل أم بعد استيلاء على السلطة. تشكل تلك الغنائم والجبايات فائض الإنتاج، حيث كانت الدولة الموحدية مثلا تنعم على طلبتها بالتحف من المخزن[٤٧]. قد ينتبه "القارئ" إلى طبيعة الهدايا السلطانية المتبادلة والتي غالبا تتجسد في السيوف، السروج، الدروع، الخيول وغيرها من الأدوات الحربية الوسيطية، ما قد يدفعه إلى التخمين في مدى انعكاس "أسلوب الإنتاج الحربي" في تحديد نوع الهدايا السلطانية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط.

تذكر المصادر التاريخية أن يهودا مدينتي تدنست[٤٨]، ومدينة تييوت[٤٩] كانا يقدمان هدايا للأعيان لحمايتهم[٥٠]، في المقابل لا يدفعون جزية. وتمثل الآية القرآنية ((قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ)) إلى قوله عز وجل ((حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ))[٥١] العلاقة بين النظام الجبائي، واستمرارية القتال (الحرب).

دأب رئيس جبل تنزيتة (شمال زاكورة) وملك فاس على تبادل الهدايا فيما بينهم، منها الهدية التي بعثها له رئيس الجبل ذات مرة وتشمل على خمسين عبدا أسود، وخمسين أمة، وعشرة خصيان، واثني عشر من جمال الركوب، ونحو ستمائة جلد حيوان يدعى اللمط تصنع

منه دروع خفيفة جدا[٥٢]، وهي من المعدات القتالية التي كان يستعملها الفرسان، كما لا تخفى أهمية العبيد من الناحية السياسية والعسكرية، حيث يصف البيدق طريقة دخول الموحدين مراكش سنة ٥٤١هـ، وزع عبد المومن الكومي السلاليم للأسوار على القبائل، وقسمهم على أبوابها فدخل عبيد المخزن بسلمهم من باب الدباغين[٥٣]. في المقابل تلقى صاحب الجبل خيلا بسروج فخمة[٥٤].

تحضر في كثير من المصادر التاريخية هدايا في قالب أدوات حربية خصوصًا وأن النص يشير إلى أن جيش السلطان لما حل بتادلة في المرة الأولى خضعت تادلة "له في الحين"، وفي المرة الثانية لما حل عليهم قائد السلطان، قدموا له هدية من خمسة عشر فرسا، وخمسة عشر عبدًا، ومائتا رأس غنم، وخمس عشرة بقرة[٥٥]، لذلك لم يكن بعض العلماء والفقهاء يقبلون الهدايا من الملوك لأن أموالهم حرام[٥٦]. كما أعفى ملك فاس سكان أيشتوم من دفع إتاوتهم، لكنهم يقدمون كل سنة له هدايا حسنة وافرة[٥٧] كثمن للأمن. والملاحظ من خلال المصادر أن هناك علاقة بين نوع وحجم الهدية، ومجال الجبل باعتباره مجال وعر، عكس مجال السهل السائغ، حيث كان سكان ندرومة يقدمون هدايا بسيطة للسلطان ليتمكنوا من إدخال سلعهم إلى تلمسان لأن الجبل يحصنهم[٥٨].

ومن بين الهدايا التي قدمها السلطان المريني يوسف بن يعقوب المريني إلى الملك الناصر صاحب مصر هدية عظيمة فيها "أربعة مائة جواد من عتاق الخيل بجهازتها برسم الجهاد"[٥٩]، غالبًا يوضح النص التاريخي لنا سبب تقديم الهدية السلطانية التي تخدم "أسلوب الإنتاج الحربي". كما بعث أبو الحسن لكحل إلى سلطان مصر سنة ٧٣٨ه هدية تضم خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب، والفضة، ولجمها خالصا، وخمسمائة حمل من متاع المغرب، وماعونه، وأسلحته[٦٠]، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء[٦١]، ويضيف صاحب "المسند الصحيح" ضمن هذه الهدية السيوف، والسروج، والعلامات، والرايات، وثلاثون جلدا شرك، وأربعة آلاف درقة لمط، وخباء قبة من مائة بنيقة، وثلاثمائة وخمسة وثلاثين من عتاق الخيل العراب، ومائة وعشرين من البغال الذكور والإناث، وسبعمائة جمل[٦٢]. وهي أدوات حربية وقتالية موجهة لخدمة "أسلوب الإنتاج الحربي" الوسيطي، ربما لو كانت الهدية تضم فرسا واحدا وسيفا واحدا قد تكون وظيفتها التعبير عن الاحترام، لكن العدد يؤكد أهميتها في الحرب، خلال معركة الزلاقة ٤٧٩هـ "انتدب المرابطون الناس من سائر الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المرتزقة والمتطوعة زهاء عشرين ألفا"[٦٣]. وما يستشف من ذلك أن الحرف التي عرفت تطورًا[٦٤] خلال الفترة المدروسة حسب قانون الطلب والعرض هي الحرف المرتبطة بصناعة الأسلحة.

تذكر المصادر كذلك أن أبا بكر بن عمر حينما عاد من الصحراء اقترحت زينب النفزوية على زوجها يوسف بن تاشفين ملاطفته بهدايا منها ألف بعير[٦٥]، وقد ذكرها صاحب "بيوتات فاس"[٦٦] نقلاً عن صاحب "الحلل الموشية"[٦٧] الذي أشار في سياق ذكره خبر هذه الهدية أنها تتضمن خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب، والخيل المسومة، وسبعون فرسا، خمسة وعشرون منها مجهزة بجهاز محلى بالذهب، وسبعون سيفا، وعشرون زوجا من المهاميز، وأنواعا من الملابس، وسبعة بنود كبار، ومائتين جارية بكر، ومائة خادم، وواحد وخمسون خادمة، ومائة وخمسون بغلا، والبقر، والغنم، والقمح، والشعير[٦٨]. والهدف من هذه الهدايا كما يفصح النص التاريخي ليستعين بها على بلاد الصحراء التي أقام بها مواظبًا على الجهاد في كفار السودان[٦٩].

حينما راسل صالح الدين الأيوبي السلطان الموحدي يعقوب المنصور يطلب منه إعانته بالأساطيل لمنازلة ثغور عكا وصور، بعث مع الوفد هدية تشتمل على خمسين قوسا عربية بأوتارها، وهي الأدوات التي تعتمد عليها فئة الرماة في الحرب، وعشرين نصلا هندي وسروج عدة مثقلة[٧٠]، لتوظيفها من قبل الفرسان في حروبهم.

لما خلع أبو البهار بيعته للمنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٧هـ، فكتب ابن عامر إلى زيري بن عطية يأمره بقتاله، فهزمه زيري، فكتب إليه بالنصر، وبعث إليه بهدية فيها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملا، وألف درقة

لمطية[٧١]، ولولا سكوت النص التاريخي حيث اكتفى المؤرخ بذكر "فكافأه المنصور" لوقفنا على نوع المكافأة/ الهدية، واستمر هذا النوع من الهدايا الحربية بين أبنائهم، حيث بعث المعز بن زيري بن عطية إلى عبد الرحمن بن منصور بن أبي عامر هدية عظيمة تضم مائة وخمسون فرسا[٧٢]، التي ستضيف له فوجا من الفرسان يرهب بها عدوه.

بلغ إلى المعز بن زيري بن عطية خبر تولية عبد الرحمن بن أبي عامر فأهدى له هدية عظيمة تتكون من "سبعمائة من عتاق الخيل، وأحمال كثيرة من درق اللمط، وجملة كبيرة من المال والسلاح"[٧٣]. ما الغاية من إرسال هدية من سبعمائة من عتاق الخيل إذا لم تكن موجهة لخدمة الحرب؟

لما بعث عبد الرحمن بن عامر إلى المغرب ابن المعز المرتهن بقرطبة واسمه المعنصر، فرح المعز بذلك وجمع تسع مائة فرس، وأرسلها إلى قرطبة تصفها المصادر أنداك بأنها لم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها[٧٤]. وغالبا ما يأتي عدد الخيول مرتفعا في الهدايا مائة فرس بالسروج[٧٥].خصوصًا وأن الآية القرآنية تدعو إلى الاستعداد للحرب بالاعتماد على الخيول: ((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ))[٧٦].

في سنة ٤١٥هـ استقبل شرف الدولة هدية من والي بسكرة تضم ثلاث مائة حصان، ومائة فرس أنثى، وعشرون بغلة بسروج محلاة، ومائة حمل من المال[٧٧]. نفس الهدايا السلطانية التي تدخل في حقل الأدوات الحربية وردت ضمن كتاب "فيض العباب" منها الكسوة، الخيول، البغال، السيوف، السروج، الألجام[٧٨]. علما أن هذه الحركة السعيدة التي خطط لها أبو عنان ونفذها تهدف إلى الاستيلاء على قسنطينة، حيث قبل الانطلاق، أمر السلطان المريني "بإقبال الجيوش والعساكر"[٧٩].

ما يدعم هذا الطرح هو تكرار في كثير من الهدايا السلطانية الأموال والأكسية الأغذية حيث "كان الصنهاجيون بإفريقية إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فإنهم يعطونهم المال أحمالاً، والكساء تخوتا مملوءة، والحملان نجائب عديدة"[٨٠]. كما تذكر المصادر ضمن الهدايا السلطانية التمور[٨١]، منها ألف حمل من التمر الجيد[٨٢]، الذي سيحقق أمنا غذائيًا للجنود في حركاتهم. وحين تبادل السلطان المريني أبو الحسن الأكحل الهدايا مع سلطان المصري بعث الأول له البرانس، والعمائم، والحرير والجوهر، والياقوت، وبادله المصري بثياب الإسكندرية والفسطاط[٨٣]، وهذه الهدايا ستسهم في التلاقح الثقافي بين البلدين، ربما قد تستمر من العصر الوسيط إلى يومنا هذا. يمكن العودة إلى الهدايا التي قدمها يوسف بن تاشفين لابن عمه والتي تضم مائة عمامة ومائة غفارة (سلهام)، ومائتا برنس، وسبعمائة كساء، واثنان وخمسون جبة، واستمر ثلاث سنوات يمده بالهدايا والتحف[٨٤]. وترد كذلك الأموال، الذخائر، الياقوت، وعشرة آلاف مثقال[٨٥] ضمن الهدايا السلطانية، مما يعني أن اختيار هذا النوع من الهدايا هو لخدمة الأهداف الحربية، لأن هذا النوع من الهدايا السلطانية يشكل ميزانية للتجييش والتجنيد من جهة، ومن جهة أخرى لدفع رواتبهم. لكن ما أثار انتباهنا هو أن طبيعة ونوع المصادر التي اعتمدنها لا تذكر بعض المعدات الحربية[٨٦] بالمغرب والأندلس الوسيطي منها: الطبول، مكونات الأسطول الحربي، المنجنيق، البارود وغيرها.

٢/٢-فائض "أسلوب الإنتاج الحربي" خلال "الطور الثالث": هدايا سلطانية للترفيه والصيد

يستمد أسلوب الإنتاج الحربي مداخله من الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها في انتصاراته وتمتلئ خزينة الدولة، ولا يمكن تقديم الهدايا في المرحلة الأولى (الطور الأول) من تأسيس الدولة بشكل كبير، لكن خلال "الطور الثالث" وهو طور "تحصيل الثمرات" وبعدما "يستفرغ وسعه في الجباية" يشرع صاحب الدولة في تقديم هداياه[٨٧]، وعرض جنوده، والإجزال لهم في العطاء حتى "يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وأسلحتهم"[٨٨]. وبحكم أن هذا الطور يتميز "بالدَّعة" فإلى جانب الهدايا التي تنسجم مع خدمة "أسلوب الإنتاج الحربي" تأتي ضمن الهدايا السلطانية هدايا للترفيه والتسلية.

تأتي ضمن هدية السلطان المريني أبي الحسن الأكحل إلى سلطان مصر ثلاثون بازا[٨٩]، لتوظيفها في الاصطياد. أما وفادة السودان من أهل مالي لما وصلوا إلى فاس واستقبلهم السلطان أبي سالم المريني جلبوا في هديتهم زرافة له[٩٠]، تصفها المصادر بالهدية "الغريبة" وبروز الناس وازدحامهم لرؤيتها، هل الأمر يتعلق بأن مجال المغرب الأقصى لم يكن يعرف حيوان الزرافة خلال العصر الوسيط؟

تخبرنا المصادر التاريخية أنه لما هزم زيري بن عطية أبا البهار كتب إلي المنصور بن أبي عامر بالانتصار وبعث له بهدية عظيمة فيها قطوط الزبد (نوع من القطط الأسيوية)، والزرافة، وأصناف من الوحوش الصحراوية كاللمط وغيرها[٩١]، وسر بها المنصور وكافأه عليها[٩٢]. وإذا ما قارنا بين أخبار صاحب "روض القرطاس" وصاحب كتاب "مفاخر البربر" يتبين أن صاحب "المفاخر" يؤرخ لهذه الهدية في سنة ٣٨٤هـ، أما "روض القرطاس" يذكرها في سنة ٣٨١هـ، كما ذكر صاحب "المفاخر" حيوانات كانت ضمن الهدية لم يذكرها مؤلف "روض القرطاس" منها حيوان غريب الخلق لا عهد للناس بها، وطائر عجيب الصوت بديع المنظر والخلقة، ودابة من دواب المسك، ونمر عجيب الخلق، أما فيما يخص الزرافة فقد أضاف أن زيري بن عطية حرص على وصولها حية، إلا أنها "نفقت في بعض الطريق فجيء بجلدها محشوًا وكثر التعجب منه"[٩٣].

ولما استدعى ابن عامر المنصورُ زيري بن عطيةَ للقدوم إليه للأندلس حمل زيري بن عطية هدايا من جملتها "طير فصيح يتكلم بالعربية والبربرية"[٩٤]، ودابة من دواب المسك، ومهاة وحشية (جنس من الظباء الوحشية)، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان نقل في قفصين من حديد[٩٥]، واحتفل المنصور لقدومه احتفالاً عظيمًا وبرزت الخاصة والعامة له[٩٦]. وكانت هذه المناسبات تشكل بالنسبة للعوام زمنا وفضاء ترفيهيا للترويح عن النفس.

كان ابن حماد بمراكش يصطاد الأسود ويهديها للخليفة عبد المومن، حيث أهدى له ذات يوم شبلا، كما أهدى له زرزورا يتكلم بأنواع الكلام[٩٧]. ويوضح ابن عذاري طريقة صيد الأسود في قوله" واستعمل شباك الحديد لصيد الأسود والضواري فكان يتحيل عليها فيصيدها ويدخلها في أقفاص حديد ويسوقها إلى عبد المومن ويتحفه بها"[٩٨]. ووجه عبد الرحمن بن حبيب بهدية إلى أبي جعفر المنصور فيها بزاة وكلاب[٩٩]. وتوضح نوع الهدية طريقة من الطرق المعتمدة بالمغرب والأندلس الوسيطي في الصيد بالطيور والكلاب بالنسبة لعلية القوم.

تطرقنا سابقًا إلى طريقة تأليف بعض المؤرخين حولياتهم بذكر أخبار الهدايا السلطانية، سندرج في هذه الفقرة الهدايا التي تهدف إلى الترفيه والتسلية. يذكر ابن عذاري في سنة ٣٨٢هـ "وفيها وصلت هدية من بلد السودان فيها زرافة، فخرج المنصور حتى دخلت عليه"[١٠٠]. وفي سنة ٣٨٤هـ كان وصول هدية من مصر مع جعفر بن حبيب ومعه فيل عظيم[١٠١]. وفي سنة ٤٢٣هـ وصلت من ملك السودان إلى المعز هدية عظيمة فيها زرافات وأنواع من الحيوانات الغريبة[١٠٢]. تجدر الإشارة إلى أن الهدايا القادمة من جنوب الصحراء أو المتوجهة نحو ملوك الإفرنج كانت تضم ضمن الوفد مترجما. إضافة إلى أن هذا النوع من الهدايا يستشف منها وجود حدائق و"محميات" سلطانية وما يتطلبه من إنفاق لرعايتها.

كما كان من عادة يليان الغماري تقديم شذانفات للذريق التي كان يتخذها للصيد[١٠٣]. وصاد جوهر سمكا من بحر المحيط وجعله في قلال الماء وأرسله كهدية لمولاه المعز بن زيري بن عطية[١٠٤]. يتبين من مكونات الهدايا السلطانية أن طبيعة المغرب والأندلس الجبلية كانت تتوفر على أنواع عديدة من حيوانات الصيد.

خَاتِمَةٌ

بناءً على ما سبق، يتبين أن طبائع الحوليات الوسيطية اهتمت بشكل كبير بالتاريخ السياسي، وتاريخ السلاطين، وتاريخ الدبلوماسية، لذلك نجدها انتقت في حولياتها أخبار الهدايا السلطانية، حيث وقفت عند بعض السنوات، في المقابل سكتت عن ذكر سنوات أخرى. ضف إلى ذلك أنها اهتمت "بالتاريخ من أعلى" هدايا السلاطين، في حين أدارت ظهراها لهدايا المهمشين والمنسيين. كما أن هناك إيلاء كبير بأهمية الهدايا السلطانية التي تخدم "أسلوب الإنتاج الحربي" هدايا تضم معدات حربية منها الخيول، الدروع، السيوف، السروج، الأقواس العبيد وغيرها، في المقابل سجلنا غياب بعض المعدات الحربية ضمن الهدايا السلطانية كالبارود، مكونات الأسطول الحربي، المنجنيق. كما كانت هناك هدايا سلطانية موجهة للترفيه والصيد والتسلية بعد تحصيل ثمرات الحروب من جبايات وغنائم، إضافة إلى أن هذه الهدايا السلطانية تسهم في التلاقح الثقافي بين الجهات.

الإحالات المرجعية:

* اعتمدنا في مقالينا على "أسلوب الإنتاج الحربي" للمرحوم الحسين بولقطيب، علما أن الباحثين بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط تبنوا أنواعا من أنماط الإنتاج منها: "اقتصاد الغزو" للمرحوم محمد عابد الجابري، واعتمده بعده الباحث إبراهيم القادري بوتشيش، إضافة إلى نمط الإنتاج الإقطاعي، المجتمع العبودي، نمط القنانة، أسلوب الإنتاج الاصطناعي، اقتصاد الندرة... للتوسع يُنظر الحسين بولقطيب، "**أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق: حالة المغرب الوسيط**". ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، العدد.٢، السنة١٩٩٥، صص٩١-٧٣. يُنظر كذلك رشيد اليملولي، **"مقولتا اقتصاد الغزو ونمط الإنتاج الحربي"**، ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. يُنظر: https://2u.pw/zPvMO8vX

(١) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. ٣ أجزاء، تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، ط.٧، دار نهضة، مصر، ٢٠١٤، ج.٢، ص.٦٦.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**. تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٣، ج.١، ص244.

(٣) **نفسه**، ص٢٤٦.

(٤) **نفسه**، ص.٢٦.

(٥) **نفسه**، ص٢٦٦.

(٦) **نفسه**، ص٢٦٧.

(٧) **نفسه**، ص٢٦٨.

(٨) **نفسه**، ص.٢٧.

(٩) **نفسه**، يُنظر السنوات الآتية: ٥١١٤/٥٤٠٣/٥٤٠٥/٤٢٣/٥٤١٥/٥٤٢٦. وفي سنة ٥١١٤ توجه إلى الشام بهدايا وتحف عظيمة. وفي سنة ٥٤٠٣ وصل إلى المهدية مركب فيه هدية جليلة تم استقبالها بالبنود والطبول. وفي سنة ٥٤٠٥ أخرج نصير الدولة هدية جليلة إلى الحاكم. وفي سنة ٥٤١٥ وقف شرف الدولة لهدية والي بسكرة فعرضت عليه. وفي سنة ٤٢٣ه وصلت من ملك السودان إلى المعز هدية جليلة. وفي سنة ٥٤٢٦ وصلت إلى المعز بن بادس من ملك الروم هدية لم ير مثلها في كثرة. يُنظر كذلك السنوات الآتية:٥٣٩٩/٥٦٦٧/٥٦٧٥/٥٦٥٨/٥٦٩١/، علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، صص-٣٠٤-٥٠٤-٢٠٣-١١٧. يُنظر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**. تحقيق محمد ماضور، ط.٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦، صص١٢٢-١٢٦-١٤٩-١٥٠-١٥٥-١٥٤.

(١٠) أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين مناقب الشيخ أبي يعزى**. تح أحمد التوفيق، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص٥٢.

(١١) محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**. تح ماريا خيسوس بيغيرا، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ١٩٨١، ص٣٢٩.

(١٢) **نفسه**، ص٤٥٤.

(١٣) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. ٣ أجزاء، تحقيق وتعليق علي عبد الواحد وافي، ط.٧، دار نهضة، مصر، ٢٠١٤، ج.٢، ص٥٤٤.

(١٤) أبو يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**: (مستخرجة من كتابه: **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**). جزآن، تح محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، فاس، ١٩٧٥، ج.٢، ص٣٦٦.

(١٥) **نفسه**، ص٣٦٦.

(١٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. ٩ أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج.٣، ص.٨.

(١٧) **نفسه**، ص١٢٩.

(١٨) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**. تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة، ط.١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص٣٧.

(١٩) ابن عذاري المراكشي، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص٢١٣.

(٢٠) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. جزآن، ترجمة محمد حجي، محمد الخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨، ج.١، ٣٣٥.

(٢١) **نفسه**، ص٣٣٥.

(٢٢) **نفسه**، ص٣٦٨.

(٢٣) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.٢، ص٨.

(٢٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١، ص١٢٤.

(٢٥) **نفسه**، ص٥٨.

(٢٦) إسماعيل ابن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس الكبرى**. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص٥١.

(٢٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١، ص.٨.

(٢٨) **نفسه**، ص٢١٤.

(٢٩) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١ ص١٥٢.

(٣٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**. ط.١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٨.

(٣١) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. م.س، ج.١، ص.٢.

(٣٢) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١ ص٣٣٥.

(٣٣) **نفسه**، ج.٢، ص٧٣.

(٣٤) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٣، ص٥٣.

(٣٥) **نفسه**، ص.٨.

(٣٦) **نفسه**، ص١٦٣. قدم سانشو هدايا نفيسة لأمير المسلمين سنة ٦٨٤هـ، علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٦٣. يُنظر الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١، ص٢٤٥.

(٣٧) تلقى يوسف المريني وهو محاصر لتلمسان هدية عظيمة من صاحب مصر، ص٣٨٧. كما بعث ابن الأحمر هدية عظيمة إلى يغمراسن بن زيان، ص٣٣٥، علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، صص٨٥-٣٨٤. يُنظر الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١، ص٢٦٧. يُنظر الزركشي، **تاريخ الدولتين**. م.س، ص١٢٦.

(٣٨) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٦٣.

(٣٩) ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**. م.س، ص٢١٣.

(٤٠) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٨٧.

(٤١) مجهول، **مفاخر البربر**. م.س، ص١١٤.

(٤٢) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٩١.

(٤٣) ابن سماك، **الحلل الموشية**. م.س، ص٥١.

(٤٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١، ص١٧٤.

(٤٥) عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. م.س، ج.٢، ص٥٠٨.

(٤٦) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٣، ص١٦٣.

(٤٧) أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**. تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص٥٩.

(٤٨) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١، ص٩٩.

(٤٩) **نفسه**، ص١١٧.

(٥٠) يُنظر الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١، ص٤٤. "وفي سنة ٦٧٤هـ ثارت العامة باليهود بفاس بسبب أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهوديا ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت إياها".

(٥١) **سورة التوبة**، الآية: ٢٩. يقول عز وجل: ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)).

(٥٢) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١، ص١٧٤.

(٥٣) البيدق، **أخبار المهدي بن تومرت**. م.س، ص٦٤

(٥٤) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. م.س، ج.١، ص١٧٣.

(٥٥) **نفسه**، ص١٨٤.

(٥٦) **نفسه**، ص٢٨٩.

(٥٧) **نفسه**، ص٣٣٥.

(٥٨) **نفسه**، ص١٤.

(٥٩) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. ص٣٨٧.

(٦٠) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٣ ص١٢٨.

(٦١) **نفسه**، ص١٢٨.

(٦٢) ابن مرزوق، **المسند الصحيح**. م.س، ص٤٥٤.

(٦٣) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تح محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٤، ص١١٨.

(٦٤) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ٦.٩-٨٦٩هـ/١٢١٢-١٤٦٥م إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**. منشورات عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص٢٥٧.

(٦٥) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٢ ص٢١.

(٦٦) إسماعيل ابن الأحمر وآخرون، **بيوتات فاس**. م.س، ص.٣.

(٦٧) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية**. م.س، ص٢٨.

(٦٨) **نفسه**، ص٢٨.

(٦٩) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٢، ص٢١.

(٧٠) **نفسه**، ص١٨٢.

(٧١) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٠١

(٧٢) **نفسه**، ص١١٧.

(٧٣) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١، ص٢٧٦.

(٧٤) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١، ص٢٥٧. ربما اشترط عليه عبد الرحمن بن عامر هذه الهدية مقابل إطلاق ابنه المرتهن بقرطبة.

(٧٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١، ص ٢٨٤.
(٧٦) **سورة الأنفال**. الآية: ٦٠.
(٧٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١، ص٢٩٨.
(٧٨) النميري، **فيض العباب**. م.س، صص.٢٥-٤٣٤.
(٧٩) **نفسه**، ص.١٦.
(٨٠) ابن خلدون، **المقدمة**. م.س، ج.٢، ص٥٤٨.
(٨١) حسن الوزان، **وصف افريقيا**. م.س، ج.١، ص١٧٤.
(٨٢) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٠١.
(٨٣) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٣، ص.١٣.
(٨٤) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية**. م.س، ص٢٨.
(٨٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١، ص١٨١.
(٨٦) يُنظر نورالدين أمعيط، **"مصطلحات العتاد الحربي بالمغرب المريني من خلال المصادر العربية"**. ضمن مجلة كان التاريخية، السنة السابعة عشرة، العدد الثالث والستون، مارس، ٢٠٢٤، صص٩٦-١٠٨.
(٨٧) ابن خلدون، **مقدمة**. ج.٢، ص٥٤٤.
(٨٨) **نفسه**، ص٥٤٤.
(٨٩) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٣ ص.١٣.
(٩٠) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.٤، ص٣٥.
(٩١) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٣٠١.
(٩٢) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١ ص٢٦٦.
(٩٣) مجهول، **مفاخر البربر**. م.س، ص١١٦.
(٩٤) علي ابن ابي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٤٠١.
(٩٥) **نفسه**، ص٤٠١.
(٩٦) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١ ص٢٦٧.
(٩٧) ابن سماك العاملي، **الحلل الموشية**. م.س، ص١٤٩. ربما كان يقصد طائر الببغاء.
(٩٨) ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**. م.س، ص٤٦.
(٩٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**. م.س، ج.١ ص٩٩. يُنظر الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١ ص١٧٥.
(١٠٠) **نفسه**، ص٢٦٧.
(١٠١) **نفسه**، ص٢٦٧.
(١٠٢) **نفسه**، ص.٣٠.
(١٠٣) الناصري، **الاستقصا**. م.س، ج.١، ص١٥٤. شذانفات هي نوع من الطيور الفارهة.
(١٠٤) **نفسه**، ص٢٥٥.